

## عرض كتاب\*

### العلاقات الدولية في عالم متغير منظورات ومداخل معرفية

مدحت ماهر الليثي\*\*

صدر عن مركز الحضارة للدراسات السياسية - بالقاهرة، كتاب أكاديمي قيم بعنوان (العلاقات الدولية في عالم متغير: منظورات ومداخل مقارنة)، في ثلاثة أجزاء متكاملة، ضمت عشرين دراسة (هي في الأصل دراسات ماجستير ودكتوراه أعدت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة): فيما يتجاوز الألفي صفحة (٢٠٧٤ ص). شارك فيه سبعة عشر باحثاً.

ويعتبر المحتوى العلمي لهذا الكتاب هو الأول من نوعه بوصفه مرجعاً باللغة العربية لاتجاهات ورؤى "غربية وغير غربية" في نظريات العلاقات الدولية، على نحو نقدي وبنائي مقارن، وعلى نحو ينشغل أيضاً بالأبعاد التطبيقية للنظريات من ناحية أخرى، وتبحث بعض دراساته - من ناحية ثالثة - عن الجديد في العلم من منظور حضاري إسلامي مقارن.

يضم الكتاب ستة محاور تشمل أبعاد دراسة العلاقات الدولية من منظورات ومداخل مقارنة: بدءاً بمفاهيم العلاقات الدولية (الفصل الأول)، فجديد الفواعل الدولية (الثاني) فالعمليات الدولية (الثالث)، فمداخل بينية بين الاقتصاد السياسي الدولي، والفكر الدولي، والنظرية السياسية، والعلاقات الدولية (الرابع)، وصولاً إلى اتجاهات نظرية جديدة ما بعد وضعية وما بعد واقعية (الخامس)، وانتهاء بدراسة قضايا نظرية وتطبيقية ذات تأثيرات متبادلة مع العلاقات الدولية (السادس).. كل ذلك ضمن إطار نقدي مقارن قدمت له د.نادية مصطفى (محرر الكتاب) بمقدمة مهمة ودراسة واسعة عن (مسار علم العلاقات الدولية بين جدال المنظورات الكبرى واختلاف النماذج المعرفية).

وعلى الرغم مما يبدو من مقدمة الكتاب من أنه يعبر عن مدرسة تتماثل للعيان في دراسة العلاقات الدولية من منظور آخذ في التشكل قوامه: مراجعة حالة العلم لاسيما في قلبه الغربي السائد، ومحاولة حلحلة تلك المركزية العلمية بتعددية نقدية من دائرة حضارية مختلفة، إلا أن القراءة المتمعنة تكشف عن

---

\* - أ.د.نادية محمود مصطفى (محرراً)، العلاقات الدولية في عالم متغير منظورات ومداخل معرفية، (ثلاثة أجزاء)،

(القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ط١، ٢٠١٦).

\*\* - باحث ومدير تنفيذي بمركز الحضارة للدراسات السياسية بالقاهرة.

انفتاح علمي وتنوع في المداخل المنهجية والمصادر المعرفية؛ سواء من داخل علم العلاقات الدولية نفسه، أو من علوم ومعارف أخرى تأكيداً لخاصية البينية وأن العلم رحم موصولة بين فروعها.

وتقوم فكرة الكتاب على فكرة مركزية هي التغير المتوازي والمتضافر بين كل من حالة العالم، وحالة العلم الذي يدرسه: علم العلاقات الدولية، وأنه كما أن العالم يتسع للسياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي؛ وللدول والأمم والجماعات والحركات والشعوب والأحلاف، وللقوة والمصلحة والقيمة والفكر، وللسلم والحرب، وللتغير والاستقرار؛ فإنه ينبغي أن يتطور منظور العلم لكي يواكب منهجياً هذا التراكم والتعدد في الظاهرة الدولية؛ الأمر الذي يطمح إليه منظور نقدي ثم بنائي من الدائرة العربية الإسلامية اقترانا ومقارنة مع منظورات العلم الغربية وغيرها.

ومن هنا تستهل الدراسة الافتتاحية بالإشارة إلى قضية "التغير العالمي" وواقع العلاقات الدولية عقب الحرب الباردة، حيث تشير محررة الكتاب إلى تعدد اقتربات واتجاهات دراسة تلك القضية منذ التسعينيات؛ مُلمحة -على سبيل المثال- إلى خمسة نماذج فكرية وعلمية تؤكد في أطروحاتها للنظام العالمي القادم مدى التنوع والتعدد الذي أضحي عليه التنظير المعاصر في العلاقات الدولية والتفاعل الداخلي-الخارجي وتداخل المجالات والمستويات: روبرت آدمز، جيمس روزيناو، فريد هاليداي، جروسير، ومحمد السيد سليم.. ما تجلى بوضوح في دراسات "العولمة": مفهوماً وآثاراً؛ وذلك من منظورات ومقتربات مختلفة وغير تقليدية.

تشير الدراسة نفسها إلى حالة وصفتها بـ"انقسام العلم" تجلت مظاهرها في ملامح مثل: الفوضى في إطلاق الأسماء على المنظور الواحد، تعدد روافد كل منظور استجابة للتغيرات في الواقع والتنظير، تآكل الحدود الفاصلة بين التنظيرات، الاختلاف على إمكانية حسم الجدالات أو الإقرار بنسبيتها، والحديث عن مدخل المنظورات المتعاقبة المتنافسة والحركة الدائمة للعلم، وتصاعد التحذير من أثر المركزية الغربية للمنظورات على مدى عالمية علم العلاقات الدولية.. ومن ثم يأتي صعود الاتجاهات النظرية النقدية الجديدة بمثابة تحول معرفي مهم في التنظير الدولي الغربي؛ ما يبرر تساؤلاً جوهرياً: ماذا بعد الرؤى والتصورات؟ ماذا عن برامج وخطط وآليات تترجم الأفكار من أجل إصلاح العالم؟ هل تقدم دراسات الكتاب إسهامها على هذا الصعيد؟

ومن هذا المنطلق تضافر في الكتاب وجهان للتمييز: العمق والتوسع النظري، مع الدقة والتركيز في التطبيق على قضايا وحالات دولية متنوعة.

**ففي الجانب النظري:** يلاحظ القارئ سريان المدخل المفاهيمي في دراسات الكتاب ودراساته كلها بصفة أساسية ما يؤكد السمة التأصيلية والتنظيرية التي تعنى بمراجعة مفاهيم العلم، والعمل على إعادة بنائها، كما تشترك الدراسات في عملية مراجعة متنوعة الزوايا لمنظورات علم العلاقات الدولية: الواقعية والواقعية الجديدة، والليبرالية والليبرالية الجديدة، والماركسية أو الهيكلية وما تحتها من مدرسة التبعية ودراسات الكولونيالية وما بعد الكولونيالية، ومدرسة الاقتصاد السياسي الدولي، وكذلك البنائية الاجتماعية، ونظرية النظم، ومدرسة دراسات العولمة، وإبراز الاتجاهات الجديدة لاسيما النقدية وما بعد الحداثة وما بعد الوضعية؛ بما فيها من اتجاهات معيارية، أو أبعاد ثقافية وحضارية، ومداخل تتعلق بتطورات الفواعل الدولية ومستويات التحليل من الدول ومن غير الدول (الأحلاف، الشعوب، الحركات الدينية،..).

ومن أهم القضايا العملية التي برزت فيها براعة التحليل النظري: التغير الدولي ونظرية لنظم، قضية الحرب ومنظوراتها المختلفة (تطبيقا على حروب القوقاز)، الإسهام الخلدوني في الفكر الدولي، الثورة والعلاقات الدولية، مفهوم العالمية في العلاقات الدولية، وخطاب صدام الحضارات. ورأى البعض أن التزاوج البنائي الواقعي من شأنه أن يقدم تفسيرات متكاملة؛ فالبنائية تركز على الأبعاد الثقافية والمعرفية، بينما تركز الواقعية على القدرات المادية.

**وفي التطبيق على الواقع:** تعرضت دراسات الكتاب لقضايا تحولات القوة من القوة الرخوة (الاستراتيجية الأمريكية تجاه العالم الإسلامي)، فالقوة الذكية في السياسات الخارجية للدول (السياسة الإيرانية نموذجاً)، إلى دور النخب والتغير في السياسة الخارجية، فقضية الهوية وعلاقتها بالسياسة الخارجية (الاندماج السياسي للاتحاد الأوروبي واثره على القضية الفلسطينية)، وكم هي معقدة عملية بناء أو تطوير سياسة خارجية في إطار تداخل المواقف الذاتية مع المواقف الخارجية.

كما وقفت دراسات من الكتاب على التحولات العالمية وأثرها على وضعية الدولة القومية في الداخل والخارج، وكيف استمرت الأحلاف الدولية عقب انتهاء الحرب الباردة (نموذج حلف شمال الأطلسي)، وتساعد الدور الدولي للشعوب (النموذج الانتقاضي) أو لفواعل من دون الدول أو عبر قومية مثل (الحركات السياسية الإسلامية)، ودور مؤسسات الرأي في تشكيل الوعي الثقافي السياسي في قضايا خارجية (استطلاعات رأي أمريكية عن الإسلام والمسلمين بعد سبتمبر ٢٠٠١).

### **كشفت هذه الدراسات في مجموعها عدة ملاحظات:**

التنوع والجديد في نظرية العلاقات الدولية، كيف تغيرت النظرة إلى الدول المتوسطة في سلم التأثير الدولي من خلال تغير الأفكار لا مجرد الموارد المادية، إعادة النظر إلى العالم وتقسيم دوائر الفاعلية

الخارجية فيه وفق معايير مصلحة مادية معنوية معا، وكيف تصاغ العلاقة بين السياستين الداخلية والخارجية من منظور أن الأخيرة امتداد للأولى وإضافة لها، بالأخص -مرة أخرى بالنسبة للدول المتوسطة- من أجل الاندماج الشامل في العالم، وضرورة إعادة صياغة مفهوم ونظرية الدولة (الحديثة) في مناطق عدة على رأسها منطقتنا العربية التي لا تزال تحمل في باطنها وبإصرار عصبية قبلية وجهوية وعرقية ومذهبية، أن التحول العالمي وفي دواخل الدول والأقاليم، أفرز عددا من اللاعبين الجدد وغير التقليديين الذين باتوا ينافسون الدولة القومية بوصفها وحدة التحليل الدولي الأساسية إن لم تكن الوحيدة. وإذا كان المنظور الواقعي الكلاسيكي أو الجديد أو مدرسة البنائية الاجتماعية لا يزالان يصران على أولوية الدولة، فإن الدراسات المشار إليها لم تتكرر ذلك لكنها أثبتت أنه ليس دائما الأهم والأكثر تأثيرا، مرة أخرى: خاصة في المناطق التي يعاد فيها النظر في الدولة: مشروعا ووظائف وقدرات وتأثيرا وتحقيقا للمصالح القومي. هذا فضلا عن الاختلاف الكبير حول تلك الفواعل الجديدة: نظريا وتطبيقيا، نقد اختزالية المنهج السلوكي وتعميمه بوصفه المنهج العلمي الأصح لتفسير العالم وظواهره، ونقد نزعة الموضوعات في الاقتربات العلمية (كالنسوي، والخضر، وما بعد الحداثة..)، في مقابل أهمية استعارة مفاهيم نظرية التعقد للتعامل مع العلاقات الدولية باعتبارها نسقا ديناميكيا مفتوحا، ونظاما شبه عضوي متفاعلا ومتغيرا وساعيا للاستقرار، تراعى فيه الخلفية التاريخية كمعمل للتجارب، ولابد من الاجتهاد التنظيري والفكري كي نصل إلى منظومة مفاهيمية وقيمية واقعية للتفاعل الدولي قوامها -كما قدم البعض- ثلاثية: التعارف، التدافع، والتداول، والتي تؤكد أن التغيير إنما هو عملية إرادية لها شروطها وقوانينها وليست حتمية لا دخل للبشر فيها.

إن مما يحسب لهذا الكتاب: عنايته بالجديد في العلم؛ ومن ذلك صيحة البينية interdisciplinary في نموذجي: الاقتصاد السياسي الدولي، والفكر الدولي والنظرية السياسية الدولية. وكذلك جمعه بين المراجعة والنقد من جهة، وشجاعة المحاولة الاجتهادية والإبداع النظري من جهة أخرى.